حلب
أم الدنيا

حلب تحن لأبنائها
وتفتح ذراعيها لتحضنهم

أنا ابنة عائلة محافظة من مدينة حلب، بين ستة بنات وست شباب، أبي من التجار المعروفين في المدينة. لم أتجاوز في دراستي المرحلة الابتدائية، كحال جميع البنات في عائلتي، في حين أكمل أخوتي دراساتهم الجامعية وتخرجوا مهندسين. تزوجت في الخامسة عشرة من عمري من شاب تربطه بعائلتي صلة قربى، سكنا في بيت أهله، وأنجبت منه أربعة أولاد وثلاث بنات، ففي عائلتي المحافظة لا قيمة للبنات بالمقارنة مع الذكور. حين شاهدتُ مسلسل "أيام شامية" رأيت الشبه الكبير مع حياتي العائلية، بما في ذلك نمط الملابس التي نرتديها. فالبنات دائماً في البيت، لا يمكننا الخروج متى ما شئنا. كان يحق لنا فقط الخروج إلى المدرسة والعودة منها. أما الخروج للترفيه فكان برفقة الوالد، فنرتاد المطاعم ونسافر إلى الشاطئ الأزرق في الصيف. أما الخروج لوحدنا أو حضور الأعراس كما تفعل الفتيات اليوم فلم يكن مسموحاً لنا.

كانت المدارس مختلفة في تلك الأيام من مطلع السبعينات، أذكر أنني كنتُ أصلي الظهر مع معلمتي التي كانت بمثابة صديقة لي، وقد رأيتها ذات مرة بعد سنوات أثناء أدائي صلاة التراويـح، فانتابتني مشاعر من تلتقي بصديقة تحبها بعد انقطاع طويل. كانت محجبة مثل أكثرية معلمات المدرسة في ذلك الزمان. .ثم تغير الوضع. كنت في الصف السادس حين أصبحت مادة الديانة غير مرسبة أحب مناطق حلب القديمة التي ولدت وكبرت فيها، فيها جوامع قديمة وأضرحة لأولياء صالحين. كان الناس قديماً يخلعون أحذيتهم ويحملونها في أيديهم إذا أرادوا دخول المنطقة، كما قال أبي، احتراماً لقدسية المكان.

بعد سنوات تشاركنا فيها السكن مع أهل زوجي، استأجرنا بيتاً منفصلاً، ومررنا بظروف مادية صعبة، ثم تحسنت أوضاعنا بالتدريـج فاشترينا قطعة أرض بنينا عليها بيتاً يخصنا. كنا ما نزال نكمل بناء البيت حين بدأت الثورة في عام 2011، وقد انضممنا إليها على الفور، في حين كان أهلي بين مؤيدي النظام.

كان اليوم السادس من شهر رمضان عام 2011 حين اعتقلت المخابرات ابنين من أولادي. لقد قفز عناصر الدورية من فوق سور البيت وخربوا المزروعات والبيت كله، وشقوا المخدات. كانوا يحملون البنادق ويصرخون على الجيران الذين خرجوا ليروا ماذا يحدث. قلتُ لقائد المجموعة : "كأنكم تهاجمون إسرائيل!" فقال لي: "أنتم تشاركون في المظاهرات وعندكم أسلحة في البيت". فرفضت اتهاماته. واتهموا ابني الذي يعمل خارج البلد بتمويل الثورة، وطلبوا منا أن نتصل به ليأتي. احتجزوا اثنين من أبنائي سبعين يوماً في فرع المخابرات العسكرية عند دوار الباسل، وأحدهما في الثالثة عشرة من عمره! بعد بضعة أيام على خروجهما توفي زوجي وهو في السابعة والخمسين من عمره. ونصحنا بعض المعارف من أصدقائه بالهروب إلى تركيا لأن المخابرات ستعود وتعتقل ابنيّ مرة أخرى، وهكذا خرجنا إلى تركيا حيث أمّنتُ على أولادي، وكنتُ أنزل إلى سوريا بين حين وآخر.

تزوجت ابنتي من أحد مقاتلي الجيش الحر، كان متزوجاً ولديه ثمانية أولاد، وابنتي في عمر أولاده. لم أكن راضية عن هذه الزيجة، وكرهتُ الجيش الحر بسببها. كنت أتردد على سوريا بكثرة للاطمئنان عليها، فامتلأ جواز سفري بالأختام. أما ابني فقد خطب فتاة من حي الراشدين وأهلها من الموالين للنظام. إلى درجة أن زوجة أحد أبنائهم تركته لأنها معارضة، مع انه كان لديها خمسة أولاد منه. وفي آخر مرة زارها ابني اختفى بعدها تماماً، فعرفنا أنها سلمته للمخابرات لأنها عرفت أن صهرنا ينتمي للجيش الحر.

حاولت أن أبحث عنه لكني لم أصل إلى أي نتيجة. كنت أنزل إلى حلب بهوية مزورة للبحث عنه، لأنني عرفت أن اسمي موجود على لوائح المطلوبين. وفي إحدى المرات حاولت الخطيبة أن تنصب لي فخاً ليتم اعتقالي، لكن صهري حذرني من الذهاب إليها. وصلنا إلى شخص طلب مبالغ كبيرة لتأمين إطلاق سراح ابني، مئة ألف ليرة... خمس مئة دولار... ألف دولار... إلى أن اتفقنا على 600 ألف ليرة سورية. عرفنا أن الرجل نصاب يقوم بابتزازنا، ولم نصل إلى أي نتيجة. في وقت لاحق شاهدته على قناة "حلب اليوم" المعارضة وهو يعترف بأنه عميل لأجهزة مخابرات النظام. فقد ألقت جبهة النصرة القبض عليه وأجبرته على الاعتراف. ثم عرفتُ أنهم أعدموه بعدما سجلوا اعترافاته.

آخر مرة نزلت فيها إلى حلب كان قبل وقوع منطقتنا في يد قوات النظام. تفقدتُ بيتنا هناك، فوجدته وقد تحول إلى حطام بعدما وقعت عليه قذائف. قمت بتنظيف البيت وترحيل الركام بسيارة، وقلتُ إنني سأعود للسكن فيه، ولم ينقص شيء من محتويات البيت أثناء سيطرة الجيش الحر على المنطقة. اشتريت ما ينقص البيت، وجهزته للسكن، وفتحت إحدى الغرف الخارجية دكاناً سلمته لشخص ليفتتحه متجراً، مقابل أن يعتني بالبيت في غيابي ويسقي المزروعات، ولا أريد منه أي شيء آخر.

بعد ذلك سيطر النظام على المنطقة وانقطع الطريق وسطت قواته على البيت بما فيه. حتى الأبواب خلعوها كما سمعتُ لاحقاً. أحزنني ذلك لكني كنتُ أعزي نفسي بالقول يكفي أن يخرج ابني سالماً وأنا راضية أن نسكن في خيمة. ولم أعد إلى سوريا منذ ذلك الوقت. أي منذ سيطر النظام على المنطقة.

لقد رأيت ويلات الحرب التي مست عائلتي شخصياً. لقد فقدت فيها زوجي وابني، ثم خسرت البيت. المال يمكن تعويضه، لكن الأشخاص الذين نحبهم لا يمكن تعويض فقدانهم أبداً. في الأول كان اعتقال النظام لاثنين من أولادي. بعد أسبوع اتصلوا من المخابرات العسكرية وطلبوا حضور زوجي وأنا واثنتين من بناتي. أخفى زوجي دموع الخوف وبخاصة على البنات. دخلنا الفرع عند دوار الباسل في التاسعة صباحاً ولم نخرج إلا حوالي وقت المغرب، وكنا في شهر رمضان. كان العناصر يأكلون الدجاج وهم يضحكون، ودعوني لمشاركتهم، فقلت لهم إنني صائمة. خرج ابناي لاحقاً، أحدهما ثم الآخر.

لقد استهدفوا عائلتي لأننا جميعاً معارضين وكثيراً ما كنا نعبر عن ذلك بالكلام الصريح أمام الأقارب، وكان أهلي يستاؤون مني بسبب كلامي. كذلك كان زوجي وأولادي يساعدون المتضررين حين يتم قصف المنطقة بصاروخ. أسعف ابني كثيراً من الجرحى في حي صلاح الدين الذي كان يشهد مظاهرات يومية، ونجا من الموت أكثر من مرة، كان يعود إلى البيت فاقد الشهية للطعام بسبب ما رآه من مشاهد فظيعة، أشلاء الجثث والجروح المفتوحة وما إلى ذلك. وكان يقول إنه جاهز دائماً للتبرع بدمه من أجل من قد يحتاجونه من الجرحى.

الواقع أنني كرهت نظام الأسد دائماً، أي قبل الثورة بكثير، منذ عهد حافظ الأسد. لم أشعر يوماً أن الأسد هو رئيسنا. لا أنسى اليوم الذي توفي فيه حافظ الأسد، وكانت فرحتي بالدنيا. كان عيد ميلاد ابني، ونزلت لأشتري حلوى للمناسبة، فاجأني أن الجميع بدأوا يغلقون متاجرهم، فعدتُ إلى البيت ، ركضت بناتي إليّ وقلن لي إن حافظ الأسد قد مات. فقلتُ: "الله يلحّق الحبل بالدلو!".

كانت لي صديقة من أيام المدرسة بيننا علاقة نسب، وهي عضو في حزب البعث، قالت لي: "لولا أنك صديقتي لكنتِ أصبحت بتليفون مني وراء الشمس". فقلتُ لها: "هذه فرحة، الله خلصنا منه، الحمد لله رب العالمين!".

أما يوم توفى باسل الأسد فقد كنتُ في طريقي إلى بيت حمي وبرفقتي أولادي الصغار. وصلنا إلى منطقة فرأيتُ أن أصوات تلاوة القرآن ترتفع من جميع المحلات، مع أنه لا أحد يجرؤ على إذاعة آيات القرآن في الوضع الطبيعي. فأكملنا طريقنا سيراً على الأقدام لأن حركة المواصلات توقفت. مررتُ على بيت أختي أولاً قبل الانتقال إلى بيت حمي، فتحت لي الباب ابنة أختي وأخبرتني أن باسل الأسد قد مات، فعلّقتُ قائلة: "ان شاء الله تموت العائلة كلها!". فهرعت أختي وسحبتني إلى الداخل وأغلقت الباب خوفاً: "ما الذي تقولينه؟! إذا سمعك أحد ما يمكن أن يكلفك ذلك حياتك وحياة عائلتك" فقلتُ لها: "هذه فرحة لا تضاهى! يجب أن نوزع الحلوى!".

أما المؤيدين للنظام فقد كانوا يفرحون لموت المعارضين، حتى أن أهلي ابتهجوا بموت زوجي. فهم مؤيدين وما زالوا يقيمون في مناطق النظام. لا توجد أي علاقة لي معهم. هناك فقط أخي الأصغر أتواصل معه، لأنه معارض. ولديّ أخت مقيمة في إسطنبول، أقول لها: "لماذا لا تذهبين للسكن في مناطق النظام؟" فتقول لي: "وهل يتركنا الجيش الحر بسلام؟!" فأقول لها: "وهل يملك الجيش الحر طائرات؟ وقد تعرضتم للقصف بالطائرات" فتصر هي على أن الجيش الحر هو من يقصف! ومرةً ذهبت للعمرة، أخبرتني أنها كانت تطوف حول الكعبة حين سألتها امرأة سعودية عما يحدث في سوريا، فقالت لها أختي: "لا شيء يحدث عندنا، لدينا أحسن نظام وأحسن رئيس!". لقد تجادلنا كثيراً ولكن بلا جدوى. وفي النهاية حدثت بيننا قطيعة.

أظن أن السبب وراء موقف أهلي المؤيد للنظام هو أنهم لا يحتكون مع الناس، مكتفين بوضعهم المادي المرتاح، فلا يحسون بما يجري حولهم والمظالم التي يتعرض لها الناس. مع العلم أن ثلاثة من أخوتي الشباب اعتقلهم النظام في فترة الثمانينات، واضطر أبي لدفع مبلغ ضخم من المال لإطلاق سراحهم. وكان الوسيط في ذلك راقصة محترفة لها علاقات مع ضباط النظام. نعم، هذه هي حال البلد، راقصة قادرة على إطلاق سراح محتجزين عند فروع المخابرات! كم بكيت حين استلم بشار الأسد السلطة.. قلتُ خلصنا من كلب فحل محله جرو. أعيش في تركيا مع ابني الأعزب وابنتي الصغرى، وتزوج اثنان آخران من أبنائي. وضعي المادي صعب، أعمل في المواسم في إعداد المؤونة، كعصير الليمون والحصرم وورق العنب والخضار المجففة، ولا أحصل على أي مساعدات.

ما أريده لبلدي سوريا هو تحقيق العدالة، وهذا ممكن فقط بتنحية بشار الأسد وأتباعه. والحال أنهم يطبّعون العلاقات معه. أنا أسمي الجامعة العربية التي استقبلته بجامعة القمامة، لقد استقبلوا من قتل الشعب السوري وهجّره وسجنه لم يبق في البلد غير بشار وأعوانه والإيرانيين والروس يستبيحون سوريا.

سوريا هي بلد الخيرات، وشعبها طيب وعريق، على العالم ألا ينخدع بشذّاذ الآفاق الذين يسيطرون الآن على البلد، فشعبنا طيب جداً ومضياف ومحب للخير وذكي وطيوب في نفس الوقت، ليس لديه لؤم، وهو شغّيل يجدّ في العمل أينما حلّ فلا يعتمد على أحد، لو أن شعباً آخر حدث له ما حدث لنا لكانت حاله أسوأ بكثير. فبرغم كل المآسي التي حلت بنا ها نحن نعمل ونقول يا رب ما النا غيرك يا الله، هكذا صاحوا في المظاهرات، نحن نعتمد على الله لا على العبد. أريد أن يعرف العالم أن الشعب السوري قد تعرض لظلم كبير جداً، وقتل ظلماً، كانت البراميل المتفجرة تقتل الأطفال وتقطعهم أشلاءً، أطفال أبرياء فقدوا ذراعاً أو ساقاً، ما حدث لسوريا لم يحدث ما يماثله لأي بلد آخر، من عاش هذه الأحداث ليس كمن سمع عنها.

مرة كنت عند ابنتي، كان الوقت صباحاً حين قصفت إحدى الطائرات محطة وقود قريبة، وتطايرت أشلاء الضحايا، انغرس الرعب في نفوس الأطفال، حين كنا صغاراً كان صوت الطائرة يبث البهجة في قلوبنا ونرفع رؤوسنا إلى السماء لنشاهدها تطير، أما الآن فقد بات الأطفال يرتعبون من صوتها. كذلك تخاف إحدى حفيداتي من الشرطة هنا في تركيا، قلتُ لها إنهم أناس طيبين، فتقول "لا يا جدتي، إنهم يخطفون الأولاد ويقتلونهم".

أريد للعالم أن يعرف أن السوريين ما كانوا غادروا بلدهم لولا الظلم الذي تعرضوا له. وبرغم كل الظلم بقينا ولم نغادر إلى حين دخلت روسيا وبدأ بوتين يقصفنا بطائراته. مع ذلك أعرف كثيراً من السوريين يوصون أولادهم أن يدفنوا في سوريا حين يموتون.

رابطة معتقلي و مفقودي سجن صيدنايا
Association of Detainees & Missing in Sednaya Prison